دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	بين الأيديولوجيا والتطبيقات السياسية : لمحات من تواريخ الكينونات السياسية
المصدر:	مجلة الدبلوماسي
الناشر:	وزارة الخارجية - معهد الأمير سعود الفيصل للدراسات الدبلوماسية
المؤلف الرئيسي:	الدعمي، محمد عبدالحسين
المجلد/العدد:	ع 32
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2007
الشهر:	يناير - محرم
الصفحات:	24 - 27
رقم MD:	384790
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EcoLink
مواضيع:	الصراع السياسي ، النظم السياسية ، الأيدولوجيات ، الفلسفة اليونانية ، الفلاسفة اليونانيون ، أفلاطون ، السلطة السياسية ، أرسطو
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/384790

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

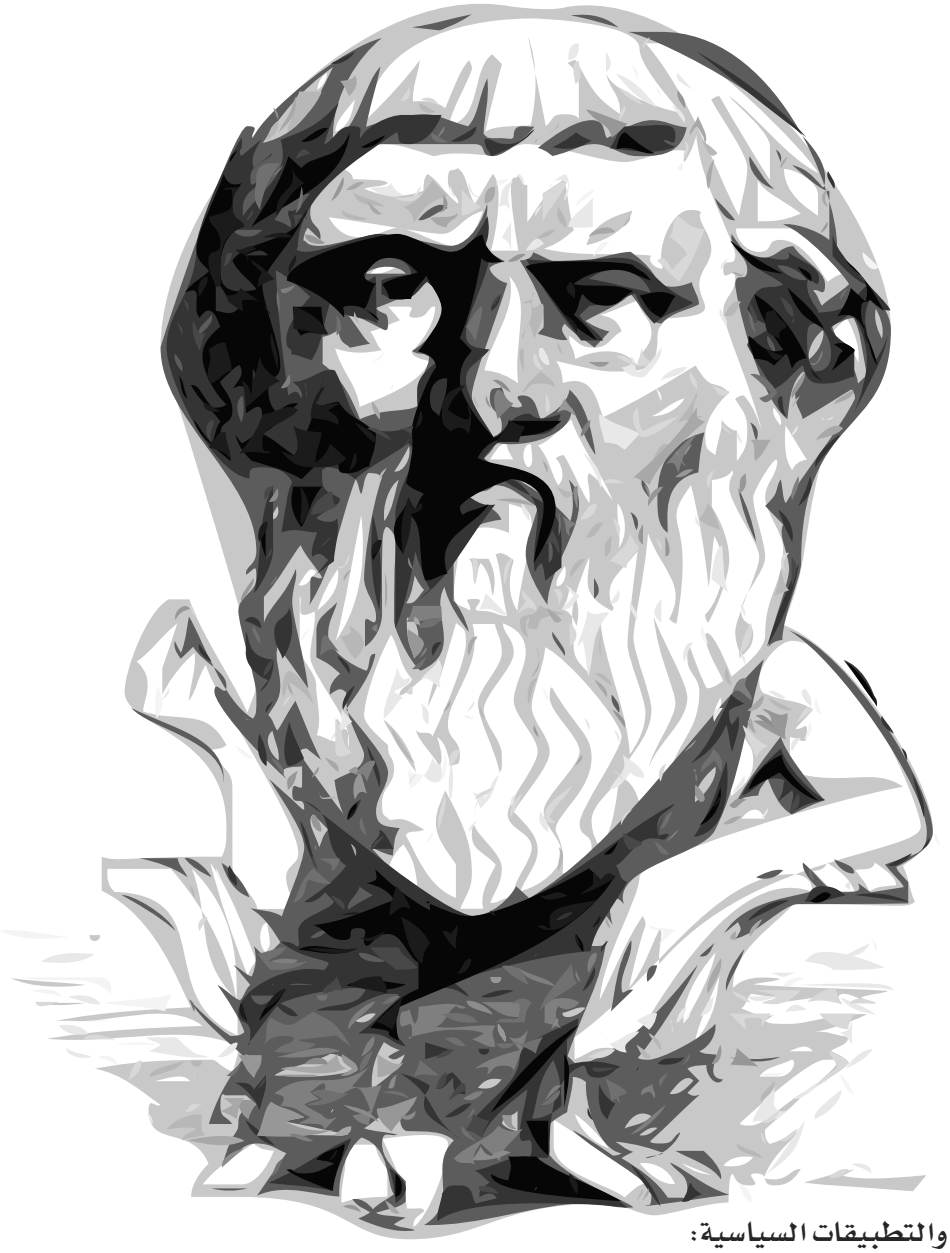

بين الأيديولوجيا والتطبيقات السياسية:

لمحات من تواريخ الكينونات السياسية

أ.د. محمد الدعمي - الأردن

تُعد الآصرة التي تواشج الفلسفة بالسياسة من أكثر الأواصر حساسية وحيوية، ذلك أنها تتقلب بين التناغم والتوتر أحيانًا، بينما تتأرجح بين التنافر والتجاذب في أحيان أخرى. وقد أماط لنا التاريخ تعقيد وشائكية هذه العلاقة المتذبذبة عبر عشرات القصص، وبخاصة تلك المرتبطة بتأسيس الكينونات السياسية وتطورها، كالدول والإمبراطوريات، الممالك والجمهوريات. ويبدو أن أول النصوص التي وصلتنا وأهمها، والتي لامست هذا الموضوع الحساس هو نص من إبداع أبي الفلسفة إفلاطون Plato الذي ألف «الجمهورية» لتجسيد رؤية فلسفية لكينونة مثالية، كينونة قادرة ليس فقط على الوجود، بل كذلك على التواصل، حسب حلمه. بيد أن حقيقة هذا النص تختلف عن ذلك لأنه نص رؤيوي لم يقوَ على تخطي عتبة التطبيق الأولي، الأمر الذي آل إلى اعتباره (عبر تاريخ الأفكار) نصًا مثاليًا غير قابل للتطبيق، حيث ترادف النص مع الرؤيوية الخيالية، واسم مؤلفه مع المثالية: Platonism و Platonic.

على سبيل رسم صورة لجمهورية فردوسية تكون فيها الأنانية معدومة، ذهب أفلاطون إلى تصوير مجتمع الجمهورية مجتمعًا بلا ملكية خاصة درجة إلغاء مؤسسة العائلة، وإرسال الأطفال من المولودين الجدد إلى «مراضع عامة» حيث تتم رضاعتهم وتنشئتهم ليكونوا أشداء في سبيل إرسالهم إلى مدارس حربية لتدريبهم على حمل السلاح والدفاع عن الجمهورية. هنا اكتشف أفلاطون الوشيجة القوية بين الفلسفة والقوة العسكرية، لأنه أدرك أن الفلسفة يمكن أن تخدم لبناء جمهورية، ولكنها لا يمكن أن تحفظ الجمهورية من الأعداء الداخليين والخارجيين بدون وجود نوع من القوة المتميزة بالشدة، ورباطة الجأش، والقدرة على تحمل الصعاب ومواجهة الأهوال والأقدار. ومع هذا، فقد عمد أفلاطون إلى إبعاد الجند عن سدة الحكم، ذلك أنه قد قسّم مجتمع الجمهورية إلى طبقات مختلفة، واضعًا الجند في موقع دوني من الهرم الاجتماعي، بينما خص الفلاسفة بقمة الهرم. وهكذا تدرج أصحاب الحرف والفنون والمواهب بين هذين القطبين (أي بين الفلاسفة والجند) على نحو مراتب. بل إن هذا الهرم الإفلاطوني قد احتكر للفلاسفة سلطة إدارة الجمهورية المثالية لأنهم يمتازون ببعد النظر والحكمة التي تجعلهم يعتمدون العقل بديلاً عن القلب في صناعة القرار. والحق، فإن هذا هو ما برر «طرد» أفلاطون الشعراء الذين يتعاطون بالعواطف من جمهوريته.

وإذا لم يكن تلميذ أفلاطون ومريده، أرسطو Aristotle، قد اتفق مع أستاذه في العديد من المواضع، فإنه (فيلسوفًا) قد اكتشف قانونًا كونيًا آخر ذا صلة قوية بتواريخ الكينونات الحية بجميع أنواعها، ومنها الكينونات السياسية، بمعنى الدول والإمبراطوريات. وقد استوحى أرسطو هذا القانون مما أسماه بـ«عالم التغير الدائم» The World of becoming حيث استمكن قانون «البداية، الوسط، النهاية»، أو ما يمكن أن يترجم إلى: «الولادة، الشباب، الكهولة» أو الموت. وقد راح أرسطو يحقق تطبيقات هذا القانون على تواريخ الكيانات السياسية، مؤكدًا أن هذه «الذبذبة الكونية» لا يمكن لأي حي أن يفلت منها. وحتى هذه اللحظة لا يجد المرء

■ لاحظت أذكى العقول في التاريخ «استحالة» بلوغ حلم «المدينة الفاضلة» أو جمهورية أفلاطون

نموذجًا سياسيًا أو اجتماعيًا قد خالف أو شذ عن هذا القانون الذي اكتشفه أرسطو، ذلك أن تاريخ العالم هو، في جوهره، تاريخ للكيانات السياسية التي تولد ثم تشب على طريق أن تشيب ثم تذوي لتموت في مراحل أخرى. هذا القانون مستوحى من متابعة حياة الكائن البايولوجي الحي، ولكنه ينطبق كذلك على ما حدث فعلاً في تاريخ العالم: من إمبراطورية الإسكندر الكبير (تلميذ أرسطو) إلى آخر الإمبراطوريات المندثرة، كالاتحاد السوفيتي السابق، مرورًا بالإمبراطوريات الرومانية والفارسية، زيادة على الإمبراطوريات أو الدول التي شهدها التاريخ العربي الإسلامي حتى نهاية الإمبراطورية العثمانية بداية القرن الزائل.

وللمرء أن يتكهن بشيء من التيقن (وليس التعسف) أن جميع الفلاسفة الذين جاؤوا بعد أفلاطون وأرسطو إنما كانوا يحومون حول أفكارهما الأساس، الأمر الذي يجعل من كتاباتهم (بغض النظر عن حجمها) هوامش على حافات نظريات هذين الفيلسوفين الإغريقيين، في جهود للإضافة والإنقاص، الاجتهاد والتحوير.

لقد لاحظت أذكى العقول في التاريخ «استحالة» بلوغ حلم «المدينة الفاضلة» أو جمهورية أفلاطون، فانقسمت إلى نمطين: بقي النمط الأول عبارة عن منشد في جزيرة غير مأهولة، في محاولة لرسم صورة لمجتمع مثالي رشيد خال من الأنانية، من أمثال توماس مور More الذي ألف كتابه الشهير (يوتوبيا Utopia) ومعنى عنوانه (اللامكان)، كناية عن استحالة تحقق الحلم. بينما حاول النمط الثاني استقراء التاريخ على سبيل الخروج بفلسفة تقوى على تأسيس كينونة سياسية واقعية وفاعلة، كما هي الحال مع الفيلسوف والاقتصادي الألماني كارل ماركس Marx ورفيقه أو مريده فردريش أنجلس Angles. وهكذا تبلورت الفجوة بين اليوتوبيين أو الطوباويين (نسبة إلى كتاب مور: يوتوبيا) وبين الدوغماتيين Dogmatist، نسبة إلى هؤلاء المتحمسين لعقيدة سياسية، ويريدون تطبيقها بلا نقاش ولا تفاهم، بوصفها مبدأ مقدسًا.

وإذا كان المرء لا يمكن أن يفلت من الشعور (حيال ما ورد في أعلاه) بأن الثقافة الأوروبية (الآرية، المسيحية) قد احتكرت هذا النقاش الحيوي حول الوشائج التي تربط الفلسفة (أو الفكر عامة) بالسياسة، فإن عليه أن يعترف بأن الفكر العربي الإسلامي لم يتخلف عن مواكبة هذا النقاش وإغنائه بالعديد من الشذرات والومضات العبقرية. بيد أن علينا أن نعترف، بشيء من واقعية مواجهة الذات، أن أهم مسببات تجنب كتابنا اليوم الإشارة إلى المنظرين المسلمين ترد إلى الأجواء الاجتماعية والسياسية المحافظة التي غالبًا ما تقاوم الارتجاع إلى العديد من الفلاسفة العرب والمسلمين (من أمثال إخوان الصفا) خشية إساءة الفهم والاضطهاد اللذين يُحالان إلى قوة وصلابة ما يسمى بـ«الضبط الاجتماعي» Social Control. لذا شهدت الساحة الثقافية والفكرية العربية الإسلامية عددًا لا بأس به من الزوابع والعواصف بسبب بعض الآراء غير النمطية أو الشجاعة في دراسة تواريخنا العربية الإسلامية، ابتداءً من (مقدمة ابن خلدون) وانتهاءً بـ(اليمين واليسار في الإسلام) وسواهما من الآراء المفرطة في التحرر من النوع الذي قدمه مفكرون من عيار الدكتور طه حسين (مصر)، والدكتور علي الوردي (العراق).

ولكن السياق context يفرض النص text في أحيان كثيرة، الأمر الذي يوجب الارتداد إلى رأي مهم قدمه ابن خلدون لاستمكان الفرق بين الفلسفة المثالية المجردة من ناحية، وبين الفلسفة المفعلة التي تتبلور في بناء دولة أو إمبراطورية، بحسب التعبير السائد في مثل هذه

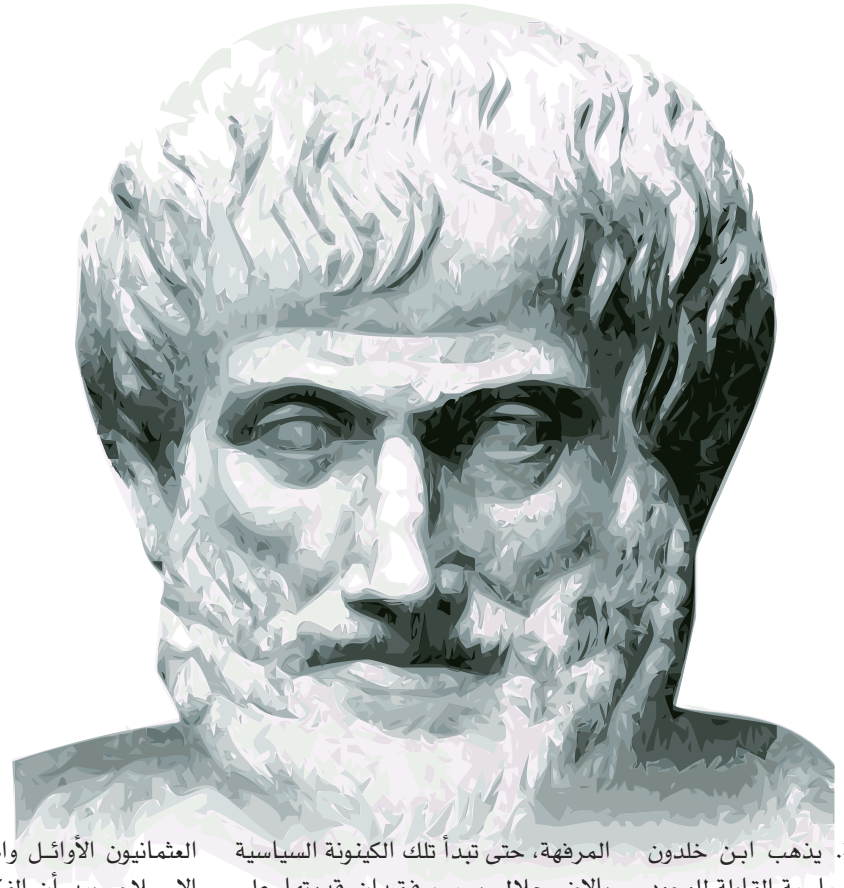

النقاشات الحساسة. يذهب ابن خلدون إلى أن الكينونات السياسية القابلة للوجود والحياة والتواصل لابد أن ترتكن إلى فلسفة إنسانية طيبة أو خيرة، بيد أنها يجب أن تعتمد على عنصر آخر من أجل أن تتبلور: هذا العنصر، برأي ابن خلدون، هو البداوة. والبداوة هنا لا تعني حياة التنقل من أجل الماء والكلأ كما نفهمها، بل تعني وجود المقاتلين الأشداء البعيدين عن ترف الحياة من الذين لا تلوث رباطة جأشهم وصلابتهم واستعدادهم لتجشم المصاعب والأهوال أية شائبة. هؤلاء هم العمود الفقري لأية كينونة سياسية يمكن أن تظهر وتتجلى في الفضاء التاريخي.

إن رأي ابن خلدون لا يبتعد كثيرًا عن آراء أرسطو في ملاحظته استجابة جميع الكينونات السياسية لقانون «الولادة، الشباب، الموت». بيد أن إضافته تتلخص في استمكان مسببات «شيخوخة» الكيانات السياسية، حيث إنه لاحظ عبر استقراء تواريخ الكينونات السياسية أنها تظهر كفكرة ثم تتبلور على أكتاف المقاتلين الأشداء وسواعدهم الأقرب إلى حياة البداوة، ولكن ما أن يفقد هؤلاء المقاتلون صلابتهم عبر الترف والحياة الرقيقة المرفهة، حتى تبدأ تلك الكينونة السياسية بالاضمحلال بسبب فقدان قدرتها على البقاء قوية. وهكذا تستجيب هذه الكينونة لعوامل التآكل والتفكك والتشرذم حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة بـ«الضربة القاضية» التي يمكن أن تأتي من العدو الخارجي أو من الداخل الممزق المضطرب.

هنا تتجلى عبقرية ابن خلدون، حيث إنه قد قرأ التاريخ بأعين مفتوحة وببصيرة ثاقبة، فأدرك رسائل الماضي التعليمية التي يتعامى عنها العديدون اليوم في مختلف أنحاء العالم.

ربما يستذكر الدارس في هذا السياق قصة إمبراطورية عظمى هيمنت على بقاع شاسعة من العالم القديم، وهي الإمبراطورية العثمانية (ناهيك من الإمبراطوريات التركمانية والتترية السابقة لها، من إمبراطوريات جنكيز خان حتى تيمورلنك). لقد قامت «الإمارة» العثمانية في بداياتها المتواضعة الأولى من كينونة صغيرة الحجم، ثم ما لبثت أن أخذت بالامتداد عبر الفتوحات والغزوات، عبر الأناضول ونحو الشمال الأوروبي أولاً (حتى فيينا)، ثم باتجاه الجنوب والشرق العربي الإسلامي. كانت الفكرة التي حملها العثمانيون الأوائل واضحة، وهي عقيدة الإسلام، بيد أن الفكرة لم تكن لتحقق التجلي إلا من خلال نظام عسكري شديد (مستوحى من إحدى الطرق الصوفية) اسمه نظام «الانكشارية». الانكشاريون، أصلاً، من أصحاب الطرق الصوفية الذين زاوجوا العقيدة الإسلامية بتراث الآباء والأجداد من القبائل البدوية التركية التي كانت تجوب أواسط آسيا على ظهور الخيول وتحت أصعب الظروف الطبيعية، حيث لا يقوى على البقاء من البشر إلا الأكثر صحة وسلامة خلق.

لقد تمكنت البداوة الآسيوية والعقيدة السامية من نقل هؤلاء الانكشارية إلى شرق أوروبا بأكمله، كما أنها مكنتهم من الامتداد عبر آسيا وإفريقيا، كي تظهر أمامنا الإمبراطورية العثمانية. ولكن متى تحولت هذه الإمبراطورية إلى «رجل مريض» أو إلى دولة قابلة للتفكيك وللتقسيم بين الإمبراطوريات الأوروبية الصاعدة. لقد حدث هذا عندما فقد نظام العسكرية الانكشارية سجاياه العسريتارية والمبدئية العقائدية عبر قرون من توافر مسببات الترف والحياة الرغيدة التي أنزلت المقاتل الانكشاري من على صهوة حصانه وأخرجته

من صومعته الصوفية، ليستجيب إلى ملذات الحياة المترفة. وهكذا فقدت الفلسفة الأولى المقومات والأعمدة التي ارتكنت إليها لتجعل من إمبراطورية «الباب العالي» خواء قوة يمتص القوى الخارجية من كل حدب وصوب. وهكذا سقطت الإمبراطورية العثمانية قبل حوالي قرن من هذا اليوم.

بيد أن القرن العشرين قد قدم لنا الأدلة تلو الأدلة على هذه الوشيجة والآصرة الحساسة بين الفلسفة وبناء الدولة: فقد كان أدق اسم وأفضله أطلق على هذا القرن هو أنه «عصر الأيديولوجيات»، إذ شهد هذا القرن تزاحمًا في الأيديولوجيات الجديدة والفلسفات المستحدثة التي أرادت، أو نجحت في بناء كيانات سياسية، منها ما بقي قيد الحياة حتى اللحظة، ومنها ما تآكل وشاخ ثم زال.

إن أهمية هذا العصر، الذي نحيا أواخره، تنطلق من ظهور أنواع الأيديولوجيات أو الفلسفات التي تمكنت من بناء إمبراطوريات أو كينونات سياسية تركت بصماتها على تاريخنا: من الشيوعية إلى النازية، مرورًا بالشيوعية الماوية والفاشستية وسواها من الأيديولوجيات التي لم يزل الكثيرون يتشبثون بها حتى اللحظة.

إن أهم ملاحظة يمكن استقراؤها من خضم هذا السياق التاريخي العاصف، السياق الذي يجسد أنماط التكرار الدورية، هي أن الكينونات السياسية التي قامت على أساس أيديولوجيات خاصة بها قد ابتدأت من قيم ومبادئ فاضلة لا يمكن لأحد أن ينكرها أو يرفضها: حتى المبادئ النازية الأصلية كانت ترتكن إلى أفكار اشتراكية من النوع الداعي إلى العدالة الاجتماعية، وإلى العمل الجماعي الفرقي (بغض النظر عن الشوفينية الإثنية الآرية التي بذرت بذور نهاية هذه الأيديولوجية). بيد أن البون بين المبدأ والتطبيق واسع، إضافة إلى استجابة القوة العسكرية إلى عوامل الضعف والرخاوة، كانت وراء نهاية تلك الكينونات السياسية التي بدت (آنذاك) وكأنها متواصلة إلى ما لا نهاية.

إن أهم مسببات سقوط هذه الكينونات السياسية المرتكنة إلى أيديولوجيات خاصة بها تتمثل في التنافسات والتناحرات التي تقود إلى الأطماع. لقد خرج المستشار الألماني

■ أهم مسببات سقوط الكينونات السياسية المرتكنة إلى أيديولوجيات خاصة بها تتمثل في التنافسات والتناحرات التي تقود إلى الأطماع

العظيم بسمارك من السلطة بعد أن رفض توسع ألمانيا الكولونيالي، منافسًا للإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية، لأنه كان يؤمن بضرورة البناء الداخلي وتكريس الوحدة الألمانية. وهكذا سقطت ألمانيا في فخ الأطماع التوسعية والتكتلات والتحالفات الدولية التي قادتها إلى حربين عالميتين، هذه الحرب التي لا تبقي ولا تذر.

ولكن هذه ليست الصورة كاملة، ذلك أن المرض الأخطر الذي ألمّ بهذه الفلسفات يتمثل في التناحر والتنافس الداخلي من أجل الهيمنة على السلطة، إذ حدث هذا على نحو واضح بعد ثورة أكتوبر في روسيا أوائل القرن الماضي، الأمر الذي قاد إلى إقصاء العديد من البلاشفة من الشيوعيين الأوائل وقتل أكثرهم، حتى انتهى الأمر إلى فلاديمير ألتش لينين (لاحظ إقصاء الزعيم الشيوعي الكبير تروتسكي).

إن الأمراض التي تعانيها مثل هذه الكينونات الوحيدة الجانب تتشكل على نحو سلسلة أو دائرة شيطانية يقود فيها المرض العضال إلى مرض آخر، وهكذا. فقد آل الصراع على السلطة في الاتحاد السوفيتي، الفتي آنذاك، إلى استحواذ تيار واحد على السلطة بدعوى أنه هو التيار الوحيد الذي يدرك فلسفتها والقادر على التمسك بها. وهكذا قاد التكتل إلى الانفراد بالسلطة، ومن ثم إلى مرض الدكتاتورية المشؤوم الذي طالما اعتمد التشبث الفردي معيارًا لصناعة القرار السياسي. وهكذا، كذلك، قاد التناحر الشيوعي في موسكو إلى ظهور دكتاتورية خطيرة متمثلة في «ستالين Stalin»، بينما قادت الفلسفة وحيدة الجانب إلى ركوب الرايخ الثالث من قبل أدولف هتلر Hitler. لقد تحولت الفلسفات الأصلية إلى نوع من «عبادة الفرد»، إذ صارت الشيوعية تسمى بـ«الاستالينية» نسبة إلى فرد، والنازية تسمى بـ«الهتلرية» نسبة إلى فرد كذلك. وكذا كان الحال في الصين، إذ تحولت االفلسفة الشيوعية، المتشددة الصلبة، إلى النمط «الماوي» من الشيوعية، نسبة إلى الزعيم الصيني الراحل «ماو تس تونغ».

وإذا كانت أمراض التناحر والتنافس، الأطماع والتوسع، الصراع على السلطة وظهور الدكتاتوريات أو «عبادة الفرد»، من أهم الآفات التي تؤدي إلى هلاك الكيانات الأيديولوجية وحيدة الجانب، فإن أخطر الأمراض «المسرطنة» التي تضع اللمسات الأخيرة على الصورة التراجيدية للكينونة السياسية هو مرض «التحجر»، ذلك أن الهيمنة على السلطة من قبل الفرد «المؤلّه» تقود إلى صناعة قناعة داخلية في نفسه، مفادها أنه هو الرجل الوحيد القادر على تمثيل فلسفة الكيان السياسي وتطبيقه، والرجل «الواحد» القادر على الحفاظ عليها. وهكذا يغلق هذا الفرد أبواب «الاجتهاد» والتحوير والتطوير أمام الآخرين درجة تحجر الأيديولوجية وفقدانها القدرة على مواكبة العصر ومجاراة التغير الدائب الذي اكتشفه لنا أرسطو قبل عشرات القرون!

إن الأيديولوجيات وحيدة الجانب تقود إلى الدكتاتوريات، والدكتاتوريات تقود إلى عبادة الفرد، وعبادة الفرد تقود إلى التحجر، والتحجر يقود إلى المعارضة في الداخل، وإلى الحروب الخارجية، والأخيرة هي التي تقدم لنا نهاية فصول مسرحية الأيديولوجية العمياء التي لا تقبل بالرأي والرأي المقابل.

لهذه الأسباب تكون الشورى والقدرة على الحوار والتسامح والوسطية هي من أهم أمصال البقاء والتواصل.. هذا درس مرسل إلى جيلنا من التاريخ وعبر العصور. لذا نستذكر مقولة الفيلسوف المسلم «صائب» حينما لاحظ البون بين «الفلسفة– الحلم» وبين طرائق تفسيرها وتطبيقها حيث قال: «إنما الحلم واحد، ولكن التفسيرات متناقضة».■